الفصـــــل الثاني

(توحيدة)

"توحيدة" تترجى زوجها "عودة" بأن يترك الطريق الذي يسير فيه؛ لأن عاقبته الندم، فهي تريد أن تنهي حياة القلق والخوف، مثلما ترك أرضه وأهله من أجل الثأر، وعاشت معه في القاهرة منذ سنوات بين الزحام".

"نوسة" تصطحب خالتها "توحيدة" -أم "شكرات"- لبيتها، وهي شبه منهارة من هول ما سمعت من "أمل" -أخت "ماضي"-...

أنا هادخل ارتاح شوية في أوضتي، لإنى مش قادرة أقف على رجلي ودماغي بتلف.

قالتها "توحيدة" قبل الدخول لغرفتها، وتجلس على السرير، وتعود "توحيدة" بالذاكرة فترة من الزمن للوراء...

_ ياريت يا عودة تنسى بقى الناس ديًا، وتخلّي بالك من الوِلد شوية، خلاص الولاد بيكبروا، والسكة اللي انت ماشي فيها ديّا واعرة وآخرتها السجن، وانت عارف إكْدِه واحنا هنا مالناش غيرك بعد ربنا سبحانه وتعالى إحنا نعتبر أغراب، ودي مش بلدنا ومانعرفش حد فيها قد إكده، وانت خوك "عيّاد" كل يوم في بلد شكل مالوش مكان ثابت، قاعد النهار ده في بلد بكرة تلاقيه قاعد في بلد تانية، لو حصل لك حاجة لا قدر الله مانعرفش نلاقيه بسهولة، وأنا كانت أختي الوحيدة اللي كانت ليّا ماتت الله يرحمها، حتى فاتت بنتها الوحيدة "نوسة"، وأبوها اتجوز واحدة تاني، وأنا خدت البنيّة اليتيمة

وباربّيها مع الوِلد وباقول لما تكبر اخدها لـ "خميس" ولدي، وأديك شايف "خميس" ملموم على شباب عفشين واحنا غلبنا فيه نصايح لكن شايف بوه ماشي كيف، بيجيب الجنيه من عين العفريت، وآدي آخرة عدم سماع الكلام.

* بكرا يكبر ويعقل يا توحيدة، وأنا لو ماعملتش اكده كنا هانجيبوا وَكل منين؟ انتِ عارفة لولا حكاية التار دي كان زماني باراعي الكام فدان شغلنا أنا واخويا نزرع ونقلع فيهم، ولو كنا عِشنا في البلد كان ولاد أبو عطية ماكنوشي هايهمّلوني أنا واخوي بعد ما خلصوا على ولاد العم كلاتهم، واحنا مالناش أي ذنب، لكن هم جبابرة هاياخدوا قِدّام الراجل اللي راح من عنديهم عشرة، وأكيد كانوا هايدوّروا علينا إحنا كمان.

_ كل ده أنا عارفاه طبعًا، إحنا بقالنا مع بعض سنين مش بسيطة يا عودة، يعني عارفة البير وغطاه.

* كنت هاعمل إيه عاد؟ كنت هاتوظف ولا هاتوظف؟! بعد ماعدّيت ٤٠ سنة؟

_ أهو كنت شوفت لك أي شغلانه بالحلال وخلاص.

* فيه واحد بيقعد معاي على القهوة أخوه شغال غفير على مصنع كبير في منطقة العاشر من رمضان، والغفير "علي" اللي معاه كبر ومابقاش قادر على شغلانة الغفرة دي؛ لإنه راجل كبير فى السن، وصاحب المصنع قال له هات راجل يغفر معاك.

_ طيب كويس شغلانة الغفرة شغلانه حلوة بالنسبة لك، وانت اكده بتحب السهر ومتعوّد عليه.

* المشكلة إن منطقة العاشر ديّه كلها مصانع، ومعظم الغفر اللي بتغفر هناك صعايدة، خايف حد من ولاد أبو عطية يتعرف عليّا هناك.

_ انت بقالك عُمر اهنِه، وشكلك كمان اتغيّر خالص عن زمان، جسمك زاد قوي، وأكيد ماحدش مهما إن كان هايعرفك وانت ماعدتش بتنزل الصعيد خالص.

* أيوه بس من خاف سلم، يا توحيدة دلوكيت العيال بتكبر ولازم أراعيهم.

_ خليها على الله، أكل العيش مُرّ.

* على الله.

هكذا دار الحوار بين "توحيدة" وزوجها "عودة"، قبل أن يسمعا صوت طرقات الباب، فانطلقت "توحيدة"؛ لتفتحته وتتفاجأ:

_ ما له خميس؟ ما لك يا خميس يا ولدي؟! رد عليا؟

* ما له خميس؟ جرى له إيه؟ طمّنوني، مالك يا خميس؟ رد على بوك يا وليدي.

"كان على الباب شابان يحملان "خميس"، ويظهر عليه بعض الجروح"

بعد أن وضع الرجلان "خميس" على إحدى الكنب البلدي المتواجدة في الصالة، قال أحدهم:

= خليه ينام دلوقتي، ولما يصحى يبقى يحكي لكم هو على كل اللي حصل.

وانصرف صديقا "خميس"، اللذان قاما بتوصيله لأهله غارقًا في دمائه.

قامت الأم بالتفتيش في جسم ولدها، إذا بها تفاجأ أنه مصاب

بطلق ناري بكتفه الأيسر:

_ خميس بينزف قوي يا عودة، هانعمل إيه عاد؟ جيب عربية بسرعة نودّيه المستشفى بسرعة.

* ابنك شكله كده عامل عملة كبيرة، اللي خلّاهم ضربوه بالنار اكده.

_ يعني إيه؟ هانسيبه اكده لما يموت مننا يا عودة؟ مش مهم حاجة، المهم ابني يعيش، اتصرف اعمل أي حاجة.

* أنا هاوصل مشوار لواحد معرفة وهاجيبه معايا علشان يطلع الرصاصة من كتف خميس، ما تقلقيش، مش هاتأخر.

_ بسرعة يا عودة، بسرعة، ابني بيروح مني.

* مسافة السكة.

رجعت "شكرات" من المدرسة فرأت أمها منهارة، وتمسك منشفة، وتمسح العرق الذي ينصب من "خميس" -أخيها-، فهو ما زال يتألم؛ فينعصر قلبها من الحزن عليه من هول ما رأت، وتجهش بالبكاء.

"توحيدة" تهدئ من روعها، وهي في نفس الوقت في أمسّ

الحاجة لمن يهدئ من روعها؛ لأن قلبها ينفطر على ابنها الأكبر.

"عودة" يدخل البيت ومعه "عشري"؛ لكي يخرج الرصاصة من كتف "خميس"، وبعدما أنهى "عشري" مهمته، يسير معه "عودة" إلى باب البيت لتوديعه، وهو يثني عليه، ويمدحه بعد خروج الرصاصة من كتف "خميس"، وبعد مرور ساعتين، يبدأ "خميس" في التعافي شيئاً فشيئًا....

* احكي لى يا ولدي؟ ايه اللي حصل لك؟ كيف انضربت بالرصاص؟ وكنت فين لما انضربت؟

~ يا بوي أنا مارضيتش أروح المستشفى علشان سين وجيم.

(توحيدة في فزع):

_ ليه يا خميس يا ولدى خايف من سين وجيم ليه؟ انت عملت حاجة عفشة أكيد يا ولدي.

* يا أم خميس، ابنك ما هايجيبهاش البر طالما ماشي مع الولدين دول، أنا يا ولدى ماخابرش أعملك ايه؟

~ يا بوي ماكنتش ماشي مع الولدين اللي جابوني دول، دول

لما شافوني بانزف جابوني للدار.

* وكيف أنت اتصبت عاد؟ احكي لي يا ولدى علشان ندبّر حالنا ولا نبلغ البوليس؟

~ بوليس لا يا بوي، لكن أنا خابر كيف أجيب حقي منهم صح

ترد "توحيدة" عليه:

_ حقك منهم؟! دول بقى ناس كتير، وواضح اكده مابيتفاهموش غير بالسلاح، يا ولدي مانافعش حق ولا باطل مع الناس دول، ابعد عن الشر وغني له يا خميس.

~ دول ناس كلوا حقي في تجارة اكده، ولما طالبتهم بباقي حقي ماعايزينش يدوهولي، ولما حسيت أنهم ناويين يأذوني وهايفتحوا عليّا النار جريت، لولا ستر ربنا كانت الرصاصة جات في قلبي.

فرد "عودة":

* تجارة إيه دي يا ولدى اللي تموّت نفسك علشانها؟!

~ تجارة سلاح يا بوي.

ردت "توحيدة" في فزع:

_ انت بتتاجر في السلاح يا خميس؟ انت عارف دي آخرتها إيه؟

فرد عليها "عودة":

* معروف آخرتها طبعًا، ولدك عاوز يموت يا توحيدة! عاوز يودّي نفسه ورا الشمس.

~ يابوي.. انت فاكر سلاح سلاح يعني؟ دي حاجات اكده بتتصنع في ورش تحت السلم، بعدين دول حتّة أو حتّتين بالكتير، بس هما طمعوا في حقي يا بوي، وانا ما احبّش حد ياكل حقي واصل.

* اللي يتاجر في ده يتاجر في ده، وطالما اتجرأت اكده، يا ولدي شوف لك سكة بعيد عن اهنه، أنا علشان أحافظ عليك همّلت أرضي، همّلت ناسي، همّلت كل اللي ورايا واللي قدّامي، وخدتك أنت واختك شكرات، وكانت لسه لحمة حمرا، وجينا قعدنا اهنه بعيد عن النار، تقوم انت بنفسك اللي تحط نفسك في قلب النار؟!

ترد "توحيدة":

_ اسمع كلام بوك يا خميس وهمّل الطريق اللي انت ماشى فيه ده.

~ خلاص يا بوي هاسمع كلامك، العمر مش بعزقة عاد، يا روح ما بعدك روح.

"خميس" كان يعلم أنه يعمل مع تشكيل عصابى مسلح، ولكنه أنكر واختلق قصة لكي يقنع والديه بموضوع الرصاصة التي أصابت كتفه.

فقال "عودة":

* عين العَقل يا ولدي.

ردّت عليه "توحيدة":

_ حاول تاخدوا معاك في شغلانة الغفرة دي اللي هاتروحها، واهو يساعدك ويبقى معاك وتاخدوا بالكم من بعضيكم.

~ بجد يا بوي؟ هاتهمل الموضوع ده اللي كنت ماشي فيه ده مع الناس النصابة ديّه؟

* طبعًا يا ولدي، خلاص الطريق بتاع التلات ورقات مابقاش ينفع، ولا عاد يصح دلوكيت، يدّك في يدّي وربنا يغنيها

بالحلال يا ولدي.

_ يا بختكوا، ويصلح حالكم يا رب يا عودة انت وخميس ابن بطني.

"عودة" يستلم العمل الجديد -"الخفرة"- على مصنع كبير في منطقة العاشر من رمضان من أصحاب المصنع، والمسئولين عنه وعن إدارته، وتم تعيينه في المصنع المسئول عن البوابة الرئيسية للمصنع، وهناك من هم مسئولون عن الأسوار، ومنطقة المخازن، وأماكن أخرى حساسة في المصنع، ولكن "عودة" لم يخبر أصحاب المصنع أن ابنه "خميس" سيكون معه فى هذه الحراسة، أو على الأقل مساعدته من آن لآخر حتى يستطيع أن يجد له عملًا فى هذا المصنع الكبير. ويرجع "عودة" لبيته سعيدًا بالعمل الجديد والاستقرار في مصدر الرزق، والأهم أنه حلال.

* عارفة يا توحيدة! لما بيقولوا لي انت مسئول عن البوابة الرئيسية في الليل، كنت هاطير طير اكده في السما، أول مرة أسمع حد في شغل يقول لي انت مسئول عن حاجة.

_ أنت قدّ المسئولية طول عمرك يا عودة، لماش عاد الفترة

الأخيرة كنت عمّال تخبط يمين وشمال.

* كنت باخبّط علشان لقمة العيش، مش علشان باحب الطريق ده عاد، لكن الحمد لله ربنا فتح لنا سكة شريفة.

_ حافظ عليها زي عينيك يا عودة.

* إن شاء الله يا أم خميس.

"خميس" أثناء عودته من المقهى إلى بيته، في نفس اليوم الذي استلم والده فيه العمل -الخفر- في المصنع، يتقابل مع "كيشة" و "ونّس"، وهما فردان من أفراد التشكيل العصابي المسلح الذي كان يتعامل معهم قبل إصابته بطلق ناري في كتفه، ودار بينهم الحوار:

= أخيرًا ظهرت يا أبو الأخماس؟ فينك يا راجل مش باين خالص الأيام دي؟

~ مين؟ كيشة، وونّس؟

= أيوه كيشة، مستغرب ليه؟! إياك كنت فاكر إننا مش هانتقابل تاني؟!

"ونّس":

- مش هاتقدر تبعد عننا، ولا هاتقدر تستغنى.

~ يا نحلة لا تقرصيني ولا عايز عسلك!!!.

- كلام إيه ده اللي بتقوله؟ الكلام دا تقوله بقى للمعلم مرعي.

~ لا مرعي ولا برعي خلاص، أنا هابعد عن طريقكم دا، وبلغوه على لساني إني بعدت عن الطريق دا، ومش هاارجع ليه تاني.

- مش بالمزاج، انت عارف كل أسرارنا يا خميس، ولازم تكمل معانا، وإحنا عارفين إن دا هايكون قرار المعلم مرعي.

= انت دخلت عشّ الدبابير يا خميس خلاص، فكر وروح للمعلم سوّي الحساب القديم، وإحنا كأننا ما سمعناش أي حاجة.

"خميس" يجلس مع الأسرة لتناول العشاء، لكنه شارد العقل وفكره مشغول؛ بسبب موضوع المعلم "مرعي"، وأيضًا يتمنى أن يكون مع والده في عمله الجديد؛ لأنه يعلم أن عصابة المعلم "مرعي" لها ذراع في كل مكان، وربما يفعل أي شيء، لكي يثني ذراعه بأي عمل خسيس؛ لتجبره على العودة للعمل معهم مرة ثانية.

وتمر الأيام تلو الأخرى، و"خميس" يعمل بالتزام وجدّ مع

والده في خفرة المصنع، وتأتي له مراسيل كثيرة للعدول عن فكـرة البعـد عـن العمـل مـع المعلـم "مرعـي" وعصـابته، ولـم يسـتجب، حتـى اتفـق المعلـم "مرعـي" مـع "كيشـة" و "ونّـس" علـى خطـف "شـكرات" أخـت "خمـيس"؛ لكـي يضطره للرجوع للعمل معهم من جديد...

_ إحنا هانخطط النهارده للعمليـة، إيـه رأيك؟ مـا تيجـي نـروح نقعد عنـد سـونيا بالليل بعد مـا تخلـص شـغلها فـى الكباريـه؟ ونفـرفش كـدا ونخطـط بمـزاج ازاي هـانخطف شـكرات أخـت خميس.

* طيـب إيـه رأيك مـا نـزقّ عليهـا سـونيا وتستدرجها لحد هنـا وتخش المصيدة برجليها؟

_عفارم عليك يا معلم ونّس.

*يبقى يورّينا بقى سي خميس هايعمل إيه لمـا يعرف إن أختـه بنت البنوت مخطوفة، واحنا اللي ورا خطفها.